الست نظيرة جنبلاط ١٨٩٠ ـ ١٩٥١م

جنان عبد الصمد

تعتبر نظيرة جنبلاط أحدى العلامات البارزة على الحضور النسوي في تاريخ لبنان المعاصر. وما يزال دورها ماثلاً في الأذهان رغم مرور ستة وأربعين عاماً على وفاتها.

ولدت نظيرة جنبلاط سنة ١٨٩٠م، في قرية عين قنية بقضاء الشوف، قرب المختارة. والدها الشيخ فارس جنبلاط ووالدتها السيدة فريدة بنت الشيخ سعيد جنبلاط. قامت بتربيتها جدتها، الست بدر أمان الدين، في بيئة أعيان الدروز على فضائل العادات والتقاليد العريقة. ويعتقد أنها لم تدخل المدرسة لأن تلك التقاليد آنئذ كانت تحول دون تلقي البنات العلم على مقاعد الدراسة، لكنها تلقت دروساً خصوصية على أيدي معلمين، في العربية وفي اللغات الأجنبية، فألمت بالإنكليزية والفرنسية، وبمبادىء معارف أُخرى.

على مدارج الزعامة

ولما بلغت الثامنة عشرة، تزوجت نظيرة جنبلاط قائمقام الشوف، يومئذ، فؤاد جنبلاط، وانتقلت للعيش معه في قصر المختارة، قصر الزعامة الدرزية عموماً، والشوفية خصوصاً، ثم ولدت منه ليندا (٩ كانون الأول ١٩٢١) وكمال (١٦ آذار ١٩٢٦). ولم يمض وقت طويل حتى فقدت الست نظيرة زوجها (فؤاد بك) إثر تعرضه للقتل، وهو في طريقه بين وادي عين بال وغريفة، في حادث غامض، أثناء تصدي مسلحين مجهولين، للفرنسيين، ولم يكن كمال قد بلغ الرابعة من عمره،

الأمر الذي ألزم «الست نظيرة» بتسلم مقاليد الزعامة الشوفية.

يعود قبول الدروز بزعامة نظيرة جنبلاط، وهي المرأة، إلى أسباب عدة، أهمها الحرص على إبقاء الزعامة في دار المختارة حيث مقرها التاريخي، وكان كرسيّ كل من بشير جنبلاط وولده سعيد، وقد رأت «الست نظيرة» أنها بين خيارين، فإما الإنكفاء العاجز، لأنها امرأة، وإما القبول بالرئاسة التي آلت إليها، وتحمل مشقات هذه المهمة الرفيعة. واختارت النهوض بأعباء الزعامة الشوفية التي رسم خطوطها الأسلاف، بعدما طالب بها الشوفيون عامة وأرادوها لهذا المنصب، خصوصاً وأن هذا الأمر لم يثر اعتراض مشايخ الدروز، وقد سبق أن تولت نايفة جنبلاط عمة زوج الست نظيرة مقاليد زعامة البلاد الحاصبانية بعد وفاة زوجها الشيخ أمين شمس. وكذلك الحال بالنسبة للست حبوس الأرسلانية ابنة الأمير بشير التي تسلمت زعامة مقاطعة الغرب خلفاً لزوجها الأمير عباس عام ١٨٠٩م. هذا فضلاً عما تتمتع به الست نظيرة ذات الشخصية القوية والمؤثرة، من كفاية نادرة في مجتمعها، جعلتها محل ترحيب الجميع. وقد ألزمتها الزعامة بتقاليد صارمة، فكانت لا تترك قصر المخارة إلا لتأدية واجب تعزية في بعض القرى الدرزية. كما عرف عنها أنها لم تكن تستقبل الشخصيات السياسية، أو الضباط الفرنسيين إلا وبجانبها أحد كبار مشايخ الدين. وقد سماها الفرنسيون «سيدة القصر».

في معترك السياسة

حال التزام الست نظيرة بالعادات والتقاليد الدرزية دون قيامها بممارسة ما يمكن أن يناط برجل، من الدور السياسي. وقد كلفت بهذا الجانب رجل سياسة هو صهرها حكمت جنبلاط ـ زوج ابنتها ليندا ـ وهو من سلالة بشير جنبلاط. فقام بنشاطات سياسية خلال مرحلة الإنتداب الفرنسي ما بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٩. وعرف عنه أنه لم يكن يتخذ قراراً سياسياً إلا بعد مراجعة الست وموافقتها، وهي التي أدخلته البرلمان وجعلته نائباً عن الشوف، وقد توسطت له بفضل علاقاتها الطيبة والقوية مع السلطات الفرنسية، وأوعزت إليه بالتصويت لصالح إميل إدة حيث انتخب رئيساً للجمهورية.

حين ألقى الإحتلال الفرنسي بثقله على سوريا ولبنان،كانت سوريا ساحة الصدامات بين الثوار الدروز والسلطات الفرنسية، إلا أن دروز لبنان لم يغيبوا عن المواجهة، من موقع قومي أولاً وديني ثانياً. وفي هذه المرحلة (١٩٢٥ ـ ١٩٤٣)، اضطرت الست نظيرة بحكم موقعها السياسي أن تقوم بدورها في الصراع الدائر بين الفرنسيين والثوار. ولزمت في سياستها جانب الإعتدال، وقد دعاها إلى ذلك معرفتها بنتجية

صراعات البيت الجنبلاطي مع القوى المحلية المدعومة من الخارج. وكانت نهاية بشير جنبلاط وولده سعيد ماثلة في ذاكرتها، فالأول مات شنقاً، والثاني مات في السجن. كما أن اغتيال زوجها فؤاد جنبلاط عزز قناعتها بأن «الإبرة لا تقاوم المخرز»، علماً أن المغدور لم يكن بعيداً عن الفرنسيين، وفي ظنها أن مقتله كان نتيجة خطأ. ولعل ذلك أثار لديها الخوف على ابنها كمال، الأمر الذي شكل دافعاً حال دون المشاركة النشطة في الثورة على الفرنسيين. من هنا حرصها على إبعاد ولدها عن الصراعات الدائرة في لبنان، حيث تلقى دراسته في مدرسة عينطورة، فتطلب إليه إنجاز تدرجه في مكتب إميل إدة للمحاماة، وكان إدة من الزعماء اللبنانيين المقربين من سلطات الإنتداب.

الموقف من الإنتداب

طمع الفرنسيون بأن تكون الست نظيرة عوناً لهم على الحكم في الشوف. فجارتهم في ذلك بغية تجنيبه الاضطهاد. فهو مركز زعامتها وزعامة أسلافها من قبل، ومركز زعامة وريثها من بعدها. وعملت بحنكة على درء سطوة المستعمر عن الشوف، ما أدى إلى دعم سلطات الإنتداب لها، في سعيهم إلى تأمين حياد دروز لبنان، استدراكاً لما قد يحصل من صراعات شبيهة بما حصل في القرن التاسع عشر وما جرّ من كوارث. ولئن كان هذا التعامل المتبادل لم يؤد إلى استتباب كامل للسيطرة الفرنسية، إذ وقعت حوادث كثيرة متفرقة في مناطق الجبل، غير أن واقع الحال لم يشهد امتداد الصراع إلى مستوى الجماعة، وبقيت الحوادث في حدود المعالجة. ويبدو أن الفرنسيين كانوا مدركين لفعالية نظيرة جنبلاط وقدرتها على التأثير في إطار المجتمع الدرزي في الجبل عموماً، وفي الشوف خصوصاً لذلك تقربوا منها وراعوا طلباتها.

وعلى حدّ قول هارولد كابلين فإن «قصر المختارة الذي كان قبل الإنتداب الفرنساوي بيت إنكلترا في الشرق أصبح اليوم بيت فرنسا» وقد ردّ الفرنسيون للست نظيرة التحية بمثلها، فأقرّوا لها بالمرتبة، واعتبروها صديقة فرنسا الكبرى، وأنشأوا في قصر المختارة مخفراً يكون في خدمتها، وأوكلوا أمن الشوف إلى ضابط كبير.

تعامل الست نظيرة مع الغرضية الدرزية

نشأت الغرضيتان الجنبلاطية واليزبكية عن الصراعات السياسية بين علي جنبلاط وعبد السلام العماد، الذي يتصل نسبه بيزبك بن عبد العفيف أحد أعوان الأمير فخر الدين المعني الثاني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ولكن تراجع آل العماد،

بسبب سياسة بشير الثاني حال دون بروز شخصية سياسية قادرة على تمثيل الغرضية اليزبكية.

وبعد وصول جيش الإحتلال الفرنسي، قامت الإستخبارات الفرنسية بدراسة المجتمع الدرزي، ورأت من الأفضل لها إعادة التوازن بين الغرضيتين الجنبلاطية واليزبكية، بعد أن كادت الأخيرة تتلاشى وسط أحداث القرن التاسع عشر. وقد أثمرت مساعيها في اعتبار البيت الأرسلاني رأساً للغرضية اليزبكية. وهكذا استؤنف الصراع السياسي بين الغرضيتين، لكنه لم يخرج عن الحدود السياسية. وكان للست نظيرة دور في إرساء التفاهم بين فرقاء الصراع على القواعد والسياسة التي تحكم علاقات العائلات المنتمية إلى هذه الغرضية أو تلك. ولم تأل جهداً في التنسيق بين مشايخ الدروز ليكون قرارها ممثلاً لجميع الدروز، وقد قربت منها عشرات الوجوه الدرزية من الغرضية اليزبكية ولاسيما في الشوف مركز ثقلها السياسي. وسعت إلى إيجاد من يواكب مسيرتها السياسية كالشيخ محمد عبد الصمد، شيخ عقل الطائفة الدرزية (١٨٦٦ ـ ١٩٥٤) والشيخ قاسم أبو شقرا. وكثيراً ما كانت تعقد الإجتماعات بين شيخي العقل حسين حمادة (يزبكي) وحسن طليع (جنبلاطي) لجبه المخاطر التي كانت تهدد الطائفة الدرزية.

وهكذا، تحول قصر المختارة في عهد الست، إلى ملتقى لكبار رجال السياسة المحليين والأجانب، وفي مقدمهم الصحافيون الأميركان والإنكليز والفرنسيون، يفدون على البلاد بكثرة، ويعتبرون أن الذي يزور لبنان ولا يزور المختارة، مثل الذي يذهب إلى روما ولا يزور البابا!

إتقان المناورة السياسية

عاشت الست نظيرة في عهد الإنتداب الفرنسي، في ظل انقسام الشعب بين مؤيد ومناهض، والطوائف بعضها يرى العهد عهده، وغيرها يشعر بالغبن والإرهاق، فوجدت نفسها وسط أحداث مثقلة بالتبعات المعقدة، مضطرة إلى الوقوف موقفاً معتدلاً، فلا هي ماشت الفرنسيين مماشاة تامة، ولا هي ناهضت سياستهم إلى حد المجابهة.

سنة ١٩٢٧، سيّر الفرنسيون قواتهم إلى الشوف وأشرفوا على بعذران فوق المختارة، حيث اجتمع الدروز، فتبين للست نظيرة أن قوى الطرفين غير متكافئة وأن المعركة لو وقعت فلن تؤدي إلا إلى مجزرة، وسيكون الدروز الطرف الخاسر فيها. فتدارست الموقف مع المحيطين بها وذوي الرأي من مشايخ وأعيان، ثم أرسلت تطلب مقابلة قائد الحملة الفرنسية، فوافاها وتحدثت إليه، وأقنعته بالإنسحاب من الشوف.

ومقابل الإلتزام بالحفاظ على الأمن في منطقتها، أخذت عليه عهداً ألا يصاب أحد بأذى وأن تنتهي الحملة بسلام.

وفي العام ١٩٢٥، عند قيام الثورة في سوريا ضد الفرنسيين بقيادة سلطان باشا الأطرش (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)، وقد بدأها دروز حوران وشارك فيها جزئياً دروز لبنان، طلبت المفوضية الفرنسية من إسكندر رياشي الذهاب إلى المختارة ليكون صلة وصل بين الست والفرنسيين، وكانت الست تحض القرى الهائجة في جبل لبنان، والآخذة في إعداد العدة لمشاركة السوريين ثورتهم، على التعقل، كما عملت على تهدئة الخواطر، وإقناع الفرنسيين بالمرونة في الرد على الثوار، ومعالجة مطالبهم.

وفي ٢ آب ١٩٢٥، جرد الفرنسيون حملة عسكرية كبيرة يقودها الجنرال ميشو لقمع ثورة جبل الدروز، وناهز عدد أفرادها ستة آلاف جندي مجهزين بالمعدات والآليات تساندهم الطائرات. ولما وصلت الحملة إلى نبع المزرعة، قبل السويداء، هاجمها فرسان الدروز، ودارت معركة انتهت بانتصار الثوار وإبادة كثير من الجنود الفرنسيين، والإستيلاء على المصفحات والدبابات والذخائر. وشكلت هذه المعركة التي نجا قائدها الفرنسي من الموت بأعجوبة، ضربة قاسية نالت من معنويات الجيش الفرنسي ومن قوة السياسة الفرنسية. عندها لجأ الفرنسيون إلى الست نظيرة ووسطوها في الصلح بين السلطة المنتدبة والدروز، لما لها من كلمة مسموعة.

لم يسعها رد الطلب وهو يرمي في ظاهره إلى نشر السلام وحقن الدماء، فألفت وفداً زودته توصياتها الخاصة، ومن أعضائه فريد بك العماد والشيخ رشيد أمين الدين، وفايز بك العماد، والشيخ قاسم أبو شقرا، والشيخ محمد عبد الصمد، وصديق آل الأطرش المعروف الشيخ وهبة طليع، إلى شيخ العقل حسين حمادة.

توجه الوفد مارّاً في ساحة معركة المزرعة، ولم يمض على المعركة أكثر من أسبوع، فاجتمع بالثوار الدروز، وأطلعهم على رسالة الست نظيرة، هناك وقف الشيخ قاسم أبو شقرا بين الجمهور، وخاطبهم قائلاً: «نحن أبناء الجبل في لبنان، قدمنا غذاء للثورة الفائتة عشرات الضحايا، وصبغنا بدمائهم حجارة اللجاه وغيره، حرصاً على كرامة الدروز والوطن وجمع الشمل. فما لكم اليوم تحقرون دماء شهدائنا وشهدائكم في هذا النزاع الرخيص. نطلب منكم بإلحاح أن تتصافحوا، وتلأموا الجراح، وتراعوا حرمة بطولات الشهداء. باسم كل درزي ندعوكم إلى الوفاق والصلح العاجل، باسم تلك الدماء الزكية التي هدرت». وما أن أنهى الشيخ قاسم كلمته حتى وقف الجمهور يتصافح ويكبر الوفد الزائر والسيدة جنبلاط.

لكن الثورة لم تهدأ، وسرعان ما تبين أن الفرنسيين كانوا يبتغون كسب الوقت، بينما كانوا يحشدون قواتهم ويستقدمون الجنود من فرنسا ومستعمراتها، إلى أن جمعوا حملة أكبر من الأولى مزودة بآلات الحرب المدمرة، وعلى رأسها الجنرال غاملان، الذي أصبح في غضون السنوات التالية، قائداً عاماً للجيوش الفرنسية في أوروبا.

في هذا الوقت، كان الكثير من الشبان والفرسان الدروز في لبنان يلتحقون بالثورة العربية السورية في جبل العرب. فما كان من السلطة الفرنسية المنتدبة إلا أن اعتقلت بعض أقاربهم وأحياناً نساءهم. ولم تستطع الست نظيرة عمل شيء في هذه المرحلة، واقتصر دورها على الطلب إلى السلطة المنتدبة إطلاق سراح المعتقلين، ورفع الأذى والتعذيب عنهم.

سياستها الداخلية

من جهة ثانية، اتسمت سياستها تجاه المسيحيين في الشوف بالدعوة إلى التآلف وتجاوز الحساسيات فيما خص العلاقة بالسلطات المنتدبة، ذلك أن المسيحيين كانوا ميالين إلى فرنسا بينما اتخذ الدروز موقفاً مناهضاً لها ولسياستها في الشرق. وقد عملت الست نظيرة على التوفيق بين الفريقين تجنباً للصدام وما يجره من الخسائر والضحايا. كما أسست علاقات متينة مع زعماء الموارنة، فحظيت بتقدير كبير في أوساطهم وخصوصاً من الرئيس إميل إدة والمطران أوغسطينوس البستاني وإتناسيوس الخرياطي، والشاعر شبلي الملاط الذي قال عنها:

تشتد إن خشن الزمان وإن يلن ... لانت كواحدة الظباء العينِ
عصمت نظيرة شبلها ومهاتها ... بشمال ذات مناعة ويمينِ
وغذتهما وكستهما وسقتهما ... ما شئت من أدب ومن تمدينِ
للجنبلاط سجية خلقية ... تنزّهت عن شبهة وظنونِ
ما طار فرخ نسورهم إلا وفي ... منقاره غصن من الزيتونِ

وانسجاماً مع تعاطيها المرن مع الفرنسيين، عقدت الست نظيرة تحالفاً مع إميل إدة، الموالي لهم، مقابل تحالف الأمير مجيد أرسلان مع الشيخ بشارة الخوري. لذا أوعزت إلى صهرها حكمت جنبلاط، النائب عن الشوف يومها (١٩٣٤ ـ ١٩٣٩)، بالتصويت لإميل إدة في الانتخابات الرئاسية، كما أشرنا سابقاً. ويذكر المسيحيون على لسان الخوري غريغوريوس أبي سعرا، «أن الست نظيرة أميرة دار المختارة، دعت وجوه النصارى والدروز الساكنين في مديرية الشوفين من كل القرى، وذلك لإزالة كل سوء

يمكن وقوعه بين الطائفتين، ولتوفير كل الوسائط التي تؤدي إلى التفاهم وتجمع القلوب على غرض واحد وهو حب الوطن. وقد بثت هذه السيدة الفاضلة روح الوطنية بين مواطنيها وأبانت لهم سوء المنقلب وأظهرت كدرها من سوء تصرف بعضهم، وقد بكت لبكائهم مستعظمة ومتأثرة».

في هذا السياق، استطاعت الست نظيرة، احتواء المشاعر المتباينة والمواقف المضطربة، المتمثلة في الجدل القائم حول الواقع الإنتدابي، وعملت على الإحاطة بذلك الجدل، وإزالة التضارب، باعتمادها الملاينة الصابرة على الصراعات. وأفلحت في تأمين حد من الوئام الوطني، وفي إنقاذ العلاقة بين المتعاملين مع السياسة الانتدابية وبين المناوئين لها الموزعين بين جنيف والسويداء وعمان، في الخارج، إدراكاً منها لفائدة توطيد الحياة المشتركة في الجبل على أساس مراعاة بعض الحساسيات المتنافرة والعمل على إزالتها تدريجاً، كلما توفرت الفرص.

العائلات الإقطاعية، والأحزاب

تميزت الست نظيرة بموقفها المعتدل تجاه العائلات «الإقطاعية» في الجبل، وتجاه العائلات الدرزية الصغيرة عامة. فكانت تجمع من حولها بعض العائلات ذات الجذور «الإقطاعية» كآل ورد وآل أبو شقرا وآل عطا اللّه وآل عبد الصمد، وتتيح لمشايخ هذه العائلات الإجتماع بها يومياً والبقاء إلى جانبها في المواقف الهامة والدقيقة، لأخذ رأيهم ومناقشتهم إذا خالفوها الرأي حتى يصار إلى قرار مشترك. إلا أنها في المقابل لم تكن ترضى أن يتخطاها أحد في شتى المسائل، مهما علا شأنه، بمطالبتها أياهم بألا يفعلوا شيئاً دون استشارتها، خشية أن يؤثر ذلك على مصالحها السياسية المحلية. فإذا حصل أي خلاف بين عائلتين في قرية ما، أو حتى بين قريتين مختلفتين، فلن تتم المصالحة بعد ذلك إلا بالرجوع إليها، وليس ذلك حرصاً منها على الإحاطة بكل صغيرة وكبيرة وحسب، وإنما لتوفير سبل الحلول بما يحفظ للزعامة الدرزية دورها وفاعليتها.

على صعيد العمل الحزبي، عرف الجبل كما سائر المناطق اللبنانية نشاطاً لبعض الأحزاب بينها الحزب السوري القومي وكان بين المطالبن برفع الإنتداب عن لبنان، كما كان رئيسه أنطون سعادة على خلاف حاد مع الحكومة اللبنانية. كذلك استقطب الحزب الشيوعي بعض الشباب المثقف وأخذ هؤلاء ينشرون مبادئه بين الشوفيين وقد اتخذ موقفاً معادياً من الفرنسيين والذين يدعمونهم.

في ذلك الوقت، كانت الكتائب اللبنانية قريبة جداً من الفرنسيين وتتوجه إلى الجميع

لينخرطوا في صفوفها مسيحيين وغير مسيحيين. بما يصب في مصلحة لبنان وشعبه، إنطلاقاً من وجهة نظرها. وبما أن الحزبين السوري القومي والشيوعي كانا يعملان بخلاف سياسة الست نظيرة، فقد خشيت أن يؤثر نشاطهما على سياستها وعلى «شعبها»، الأمر الذي دعاها إلى تشجيع أبناء منطقتها على الإنتساب إلى حزب الكتائب، وكلفت مخاتير القرى والبلدات الشوفية بتشكيل فروع للحزب فيها. ولم تمضِ أشهر قليلة حتى استقطبت الفروع العديد من أبناء هذه القرى. ويحكى أن أحد مخاتيرها وجه رسالة خطية إلى قائمقام الشوف، يطلب منه الموافقة على إلباس الحزبيين الكتائب لباساً رياضياً لإجراء التدريبات. ورفعت هذه الرسالة إلى وزارة الداخلية. وما تزال محفوظة في إحدى المكتبات الخاصة. والجدير ذكره أن الأفراد الذين انتسبوا إلى ذلك الحزب في قرى الشوف لم ينتسبوا إليه بدافع القناعة، بل لأن الست نظيرة طلبت منهم ذلك وشجعتهم عليه. بمثل هذه السياسة واجهت الست نظيرة تلك القوى المطالبة باستقلال لبنان، أو باتحاده مع سوريا.

شؤون الناس ومشاكلهم

عرف عن الست نظيرة أنها كانت مقصداً لجميع الناس من أنحاء الوطن، ومن مختلف طوائفه، يزورونها طالبين مساعدتها. وكان يعرف عنها أنها «صاحبة حق»، وكانت توضح لم يعنيه الأمر أنها لا تستطيع مساعدة من يحاول أن يخفي عنها الحقيقة، وتتجنب التلميح وتخوض الموضوع مباشرة، وتقول كلمتها بجرأة وصراحة وبمرونة في آن معاً ودون خوف، بعدما تزن القول قبل التلفظ به، فتطيعها الكلمة. ولعل هذا الأسلوب أكسبها احترام الأصدقاء والخصوم على حد سواء. وكثيراً ما جمعت في دارها وجوه النصارى ووجوه الدروز إلى مائدتها، لتوفير الإجماع على غرض وطني باذلة ما تقتضيه أصول الكرم وحسن الضيافة.

ولم يقتصر اهتمام الست نظيرة بخدمة الشوف سياسياً، بل كان لها اليد الطولى في شؤونه الاجتماعية والفردية، وفي تسوية الخلافات العائلية وقضاء مصالح الأفراد لدى السلطة، والإصغاء إلى الشكاوى. وجه آخر من اهتماماتها يظهره حرصها على إيفاد ولديها ليندا وكمال لحضور احتفالات القرى وبرفقتهما الشيخ بشير أبو حمزة، ليقينها بأن التربية والتقليد يسهمان في إعداد الشباب لبلوغ المستوى الذي يتوخّونه. أما زياراتها لهذه القرى فكانت قليلة نظراً لضيق وقتها وتعدد اهتماماتها، فتقتصر في ذلك على تأدية واجبات التعزية لعائلات المتوفين، أو لحل خلاف نشب بين أبناء البلدة

الواحدة أو بين بلدتين متجاورتين. وكان يرافقها في كلتا الحالتين مشايخ العقل وبعض مشايخ هذه البلدات المتواجهة. وقد أدركت أن قلة زياراتها لهذه القرى سوف تبعدها عن أهاليها، لذلك وضعت برنامجاً وزعت فيه زيارات العائلات لها حسب قراها على مدار الأسبوع، فكان لكل مجموعة من العائلات يوم يتجمعون فيه باكراً لزيارة قصر المختارة وسيدته لإطلاعها على أخبارهم ومشاكلهم، أو لتهنئتها في بعض المناسبات الخاصة كفوز صهرها في الانتخابات النيابية مثلاً أو نجاح ابنها كمال في شهاداته أو غير ذلك من الأمور. وكان شكرها وامتنانها لزائريها يتم عبر خطابات شفوية ورسائل خطية مطبوع عليها اسمها. ومما عرف عنها محافظتها على تراث عشيرتها، وعلى آدابهم وتقاليدهم. فلم تنزع عنها الحجاب في جميع المقابلات التي كانت تجريها، الخاصة منها والعامة، ذلك المنديل الذي يلف رأسها ويغمر شعرها ليرتاح فوق كتفيها ويجاور صدرها بطريقة مميزة. كما كانت تنتقي ملابسها المحتشمة انتقاء. ولم تقابل أحداً من الشخصيات الوطنية أو الأجنبية إلا ويرافقها شيوخ الطائفة.

المرأة الدرزية في عهد الست نظيرة:

قبل استلام الست نظيرة مقاليد الزعامة الدرزية، كانت النساء الدرزيات لا يعرفن قصر المختارة رغم قربهن منه. وذلك عائد إلى العادات والتقاليد التي جعلت من المرأة الدرزية رهينة منزلها. إلا أن الأمر اختلف في عهد الست، ولا سيما بالنسبة للنسوة اللواتي ينتسبن إلى العائلات الإقطاعية، وقد دأبن على زيارة قصر المختارة في الموعد المخصص لعائلاتهن وقراهن. فكن يتجمعن في ساحة بلداتهن في ساعة مبكرة من الصباح، ثم ينطلقن إلى القصر مشياً على الأقدام. ونظراً لبعد المسافة، بين المختارة والعديد من القرى، ونظراً لعدم توفر السيارات في ذلك الحين، فقد كن يكلفن نسوة من القرى المجاورة من العائلات الصغيرة أو الفقيرة، بحمل الأحذية «الجديدة» ذهاباً إلى المختارة وإياباً منها، وينتظرنهن على مدخل القصر، حاملات الأحذية القديمة بعد استبدالها، إلى حين خروج الزائرات. إن ظاهرة زيارات القصر مع غيرها من الظواهر، حملت المرأة الدرزية صاحبة المكانة الوسطى (المشايخ الصغار) على المناقشة في السياسة وتحليل أخبارها. بخلاف ما كان عليه الوضع يوم كان سيد المختارة رجلاً.

كمال جنبلاط يرث والدته سياسياً.

بعد موت حكمت جنبلاط صهر الست نظيرة عام ١٩٤٣، كان لا بد لها أن تختار من يحل محله ويمثلها في المؤسسات الرسمية. وكان ابنها كمال ما يزال في طور الإعداد،

وهو يتدرج في مكتب إميل إده للمحاماة، فوقع الاختيار على رشيد بك جنبلاط أحد أقرباء زوجها. فلعب هذا دوراً قصيراً في السياسة اللبنانية، قبل أن يحل محله، ومحل الست ابنها الشاب كمال جنبلاط. وكان تعاملها معه كأم رؤوم نابعاً من حرصها على توريثه مركز أجداده، ومن احترامها لآرائه ومبادئه، معتبرة كرامته من كرامة الدار. بالمقابل كان كمال معجباً بشخصية والدته، فلم يخالفها الرأي في مطلع شبابه، وهي كانت تشجعه على الظهور وعلى إلقاء الخطب أمام رجال السياسة وأهل الفكر، وعلى استقبال الشخصيات. لكن فكر كمال جنبلاط بدأ يتبلور شيئاً فشيئاً ليرسو على مبادىء وطنية مخالفة لفكر أمه.

على أي حال، فقد أثمرت سياسة الست في الاستفتاء الشعبي عام ١٩٤٣، بفوز ابنها كمال بصورة لا مثيل لها عند أول إطلالة له على السياسة في لبنان، ونال أعلى نسبة من أصوات المقترعين في الجبل متجاوزاً سائر المرشحين الآخرين المتنافسين على ١٧ مقعداً، وكان لبعضهم ممارسة طويلة في الشأن العام اللبناني، ومن بينهم الرئيسان إميل إده والشيخ بشارة الخوري. ومنذ وصوله إلى البرلمان، كان الصراع بدأ يشتد ضد الانتداب الفرنسي، وقد أكد في أول خطاب له في مجلس النواب وقوفه إلى جانب الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح في سياستهما الرامية إلى تحقيق الاستقلال التام. فبدا هذا الموقف وكأنه انحراف تام عن سياسة الوالدة وإحراج لها في علاقتها بإميل إدة وبجميع من داروا في فلك الانتداب. وأخذت مواقف الإبن تتوضح تدريجاً باتجاه تغيير جذري في سياسة البيت الجنبلاطي.

على هذا النحو، بدأت الست نظيرة تواجه عزلة سياسية لم تنفع معها محاولاتها انتقاد مواقف ابنها الشاب. وقد اضطرها التفاف الفلاحين والفقراء من جميع الطوائف اللبنانية حول توجهاته إلى الرضوخ لسياسته، ما أدى إلى توقف نظيرة عن لعب أي دور مع انتهاء عهد الانتداب، بعدما لعبت دوراً سياسياً استمر نحو عقدين من الزمن، وتوفيت في ٢٧ آذار من العام ١٩٥١، في مستشفى سان شارل الألماني، ونقل جثمانها في موكب مهيب باتجاه قصر المختارة، صباح ذلك اليوم، يتقدمه رجال الشرطة والسياسة ورجال الدين ويرافقه الكثير من سيارات المواكبين والمحبين لتلك السيدة التي تميزت طوال عهدها بجمعها المتناقضات حولها، وقد مكنتها مزاياها أن تفيد من الفرصة المتاحة لها كامرأة فتتحمل مسؤوليات شاقة بمرونة ودراية لم تتوفرا لغيرها من مجايلاتها في تلك المرحلة الانتقالية الشائكة من تاريخ لبنان.

المراجع

١ ـ **نساء من بلادي** ـ ناديا الجردي نويهض المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ١٩٨٦.
٢ ـ **معجم أعلام الدروز** ـ محمد خليل الباشا المركز الوطني للمعلومات والدراسات ـ الدار التقدمية ـ ١٩٩٠.
٣ ـ **سيرة معلم** ـ د. سامي أبو شقرا ـ ١٩٩٤.
٤ ـ **شخصيات عرفتها** ـ نجيب البعيني ـ ١٩٩٧.